فالح عبد الجبار يمتع زبائن المقهى الثقافي
بالنصوص الأدبية في رأس المال

عبد جعفر

احتفى زبائن المقهى الثقافي العراقي في لندن يوم 24-2 بالمفكر والباحث العراقي الدكتور فالح عبد الجبار الذي قدم محاضرة ممتعة عن النصوص الأدبية في رأس المال ووظيفتها المعرفية والجمالية عند كارل ماركس شاعر الديالكتيك.

الدكتور فالح عبد الجبار في محاضرته للمقهى الثقافي

و سبق للدكتور فالح عبد الجبار ان قام مؤخرا بترجمة كتاب "رأس المال" الى العربية بمجلداته الثلاثة والتي صدرت عن دار الفارابي في بيروت. وتميزت هذه الترجمة عن المحاولات السابقة بشموليتها

لكل المادة المتعلقة بالمجلدات الثلاثة من الكتاب، ودقتها ووضوحها. والأهم من كل ذلك هو كونها ترجمة للكتاب من اللغة التي كتب بها - الالمانية.

ومعروف ان الدكتور فالح من مواليد بغداد 1946، عالم اجتماع عراقي، غادر العراق عام 1978. عمل أستاذاً وباحثاً في علم الاجتماع في جامعة لندن، مدرسة السياسة وعلم الاجتماع في كلية بيركبك‘ والتي كان قد حصل فيها على شهادة الدكتوراه. عمل سابقاً كمدير للبحث والنشر في مركز الدراسات الاجتماعية للعالم العربي الذي كان مقره في نيقوسيا وبيروت (1983-1990). متخصص بدراسة الفكر السياسي والاجتماعي في الشرق الأوسط، وتتناول أعماله: الدين، دور القانون، الصراع الديني والمجتمع المدني. وله العديد من المؤلفات العربية والانكليزية، ومن كتبه: الدولة والمجتمع المدني في العراق، الديمقراطية المستحيلة - حالة العراق، معالم العقلانية والخرافة في الفكر العربي، المادية والفكر الديني المعاصر، بنية الوعي الديني والتطور الرأسمالي (أبحاث أولية)، فرضيات حول الاشتراكية، المقدمات الكلاسيكية لنظرية الاغتراب. وله من الترجمات: الاقتصاد السياسي للتخلف، موجز رأس المال، رأس المال، نتائج عملية الإنتاج المباشرة. وهو يترأس حالياً "معهد العراق للدراسات الاستراتيجية" في بيروت.

وفي بداية المحاضرة اكد فالح عبد الجبار ان هذه النصوص هي جزء صغير من موضوع اكبر، فالنصوص في عموم اعمال كارل ماركس ضخمة. وقد سبق لأحد الباحثين البريطانيين (بوروار) ان وضع عن ذلك كتابا عنوانه(ماركس والأدب). و اشارالى:
" اول مقال لي كتبته عن رأس المال هو عن النصوص الأدبية فيه، جمعتها من ترجمة عربية ونشرتها في(الفكر الجديد) عام 1973"

" وارجو ان لاتتعجبوا ان قلت ان كتاب رأس المال لم يكتمل نشره لحد الأن. فهناك مسودات للعمل نفسه بحوالي نصف مليون كلمة - تقريبا الف صفحة- لم تنشر لحد الان، ومن المحتمل أن يكتمل نشرها عام 2025."

"كما ان هناك دراسات رياضية حول الكتاب لم تنشر لحد الآن ايضا. ولهذا فكل المدرسة الماركسية وكل الحركة العمالية اعتمدت على نص ليس لم يكتمل بحثه، وانما لم يكتمل نشره، كما ان هناك جوانب قد شاخت فيه."

واضاف : "معروف ان ماركس انكب اول الامر على دراسة القانون والحقوق، حيث كان والده –وهو محامي- يدفعه من اجل ان يحافظ على مهنة العائلة، وكذلك اهتمامه بالأدب اذ كان يحفظ مع صديق العائلة وأب زوجته، فون ويستفالن، الكثير من نصوص غوته وشكسبير ودانتي وهوميروس.

وبعد ان اكمل الحقوق، توجه الى دراسة الفلسفة، وكان قريبا من مجموعة الهيغليين الشباب. ولما بدأ يعالج الأمور فلسفيا وجد ان هناك الكثير من الأمور التي لا يمكن الخوض فيها، مثل العلاقات الطبقية، الاقتصاد السياس، التغيير المجتمعي، التغيير السياسي. ولهذا وجد الحاجة ماسة الى دراسة الاقتصاد السياسي، وبدأ يدرس الاقتصاد السياسي منذ عام 1842. مع العلم ان هيغل هو أول من نبه الألمان الى حقيقة الأقتصاد في كتابه (فلسفة الحق)، اذ تناول المجتمع المدني الحديث كنظام للحاجات، وكيف تسود فيه الأنانية، معتبرا ان الحرية لا تتجلى الا في الملكية، وهذا هو الأساس الذي أخذت منه الحركة العمالية مضمونها المطالب بتعميم الملكية الاجتماعية، فحرمان العمال و تجريدهم من الملكية يعني تجريدهم من الحرية."

واكد المحاضر ان ماركس ،عند دراسة الاقتصاد، كان يتوفر على دراسة ادبية هائلة ودراسات حقوقية وفلسفية . وفي رأس المال نجد هذه المستويات الأربعة متداخلة مع بعضها في اسلوب ماركس.

" فنراه حين يتحدث عن القيمة التبادلية، يظهر شكسبير، وحين يتكلم عن النقود يظهر سوفوكليس، في تداخل عجيب وذاكرة متقدة."

"قبل أن يكتب ماركس اطروحته (الفرق بين فلسفة الطبيعة عند هيرقليدس وابيقور)، كتب مسرحية شعرية ومجموعة قصائد ورواية ، ولكنه اعترف في أحدى رسائله لأحد اصدقائه بان شيطان الشعر لم يسكنه، فهو يحب الشعر ولكن لم يوفق فيه، فشعره ذهني، يفتقر الى الطراوة الحسية."

و اشارت المحاضرة الى ان الكثير من المهتمين بحياة ماركس، تناولوا النصوص الأدبية عنده، منهم الكاتب الانكليزي فرانسيس وين الذي اصدر (سيرة ماركس) عام 1992، ثم اصدر كتابا عام 2011 بعنوان (سيرة حياة كتاب رأس المال) الذي نشر فصلا منه في الغارديان تحت عنوان - ماركس شاعر الديالكتيك-.

و اضاف:" النصوص الادبية عند ماركس لها وظائف عديدة وقد استخدمها كوثيقة تاريخية، وهذا شيء نادر في البحث السوسيولوجي. واستخدم أيضا النص الأدبي لشرح المفاهيم الاقتصادية المجردة ، او للسخرية، و النقد، فضلا عن تصوير العلائق الاجتماعية وانماط التصورات اليومية، السطحية عن العلاقات الاقتصادية."

"وعلى سبيل المثال وصف ماركس اختراع العجلة المائية في الطحن، في عهد الرومان الذي وفر جهد الانسان (هي ابداع بشري، ولكن سنصل الى لحظة تكون فيها الألة تعمل مجانا مثل قوى الطبيعة).

ويستشهد ماركس بنص من شاعر يوناني اسمه انتيباتروس هذا فحواه:

(ارحن اياديكن ايتها الطاحنات،

وأغفين بهدوء حتى لو صاح الديك مؤذنا بالفجر

،فالالهه ديمترا أمرت الحوريات بعملكم

وهن يدرن العجلة

والعجلة تدير الرحى الثقال

فانعمن بحياة كحياة الالهه)

"ويقارن ماركس الاحتفاء القديم بالالات بوصفها تريح البشر من عناء الكد، مقابل ابتكار الالات و ادخالها في المصانع الانكليزية التي ادت الى اطالة العمل وزيادة عبودية العامل الذي كان يعمل 18 ساعة في اليوم."

" مع ظهور الاقتصاد النقدي، وظهور النقود التي يتم من خلالها التبادل و ايضا تكديس الثروة ، اصبح الذهب المعيار العالمي او الكوني لقياس القيمة و تجسيد الثروة. فكل سلعة يجب ان تتحول الى نقد، و لكن ليست كل سلعة قابلة لذلك، اما النقد فقابل للتحول الى اية سلعة ، لانه الممثل الشامل لعالم السلع."

يستخدم ماركس لوصف سطوة النقود و قدرتها على تفكيك المجتمعات و العلاقات نصين، الاول لسوفولكس والثاني لشكسبير.

سوفولكس في مسرحية انتيغونا:

(ما من شيء شاع بين الناس اكثر شرا من المال،

يهدم المدن ويطرد الناس من بيوتها يغوي،

ويفسد اجمل النفوس

نحو كل ما هو عار وشؤم

ويعلم الناس اتيان الفجور)

ونقرأ لشكسبير هجاء للذهب (المال و الثروة في عهد النقود المعدية):

(ايها الذهب الثمين الأصفر البراق ،

قليل من هذا يجعل الأسود أبيض والقبيح جميلا ،

والظالم عادلا والوضيع نبيلا،

ويقلع وسائد الرجال الشجعان من تحت رؤوسهم،

هذا الرقيق الأصفر يبني ويبارك الملعونين

ويحمل على عبادة البرص الابيض

ويضع اللصوص في مقاعد الشيوخ ويسبغ عليهم الألقاب ويحيطهم بالتوقير والخضوع،

انه يجمل الأرملة العجوزالبالية عروسا

تعال ايها الصلصال الملعون

يا مومس الجنس البشري).

"ويستخدم ماركس نصا اخر لشكسبير ليشرح فيه مفهوم القيمة باعتبارها علاقة اجتماعية وانها نتاج العمل البشري .

هنا يسخر ماركس من سطحية الاقتصاديين الذين يخلطون المفاهيم عن الثروة و القيمة. فأحد هؤلاء الاقتصاديين يقول (ان الانسان غني والجماعة غنية اما اللؤلؤة او الماسة فليست غنية، أنها ثمينة). كيف يمكن للمرء ان يكون غنيا بدون امتلاك اشياء ثمينة، اي اشياء ذات قيمة تبادلية كبرى في سوق السلع. لشرح ذلك يورد ماركس نصا لشكسبير الذي يتناول غباء احدى الشخصيات على غرار غباوة الاقتصاديين: (ان تكون حسن الطلعة فهذه هبة الحظ، اما تعلم القراءة والكتابة فهي من الطبيعة). نعرف ان الوسامة تأتي من الطبيعة، فالعلاقة هنا مقلوبة، كما عند الاقتصاديين.

وحول قيمة السلع غير الظاهرة للعيان، فهي ليست شيئا حسيا ملموسا والتي لايمكن الامساك بها الا بقوة التحليل ويستشهد ماركس ثانية بشكسبير في نص في مسرحية هنري الرابع حول الأرملة الطروب التي لديها عشاق كثيرون يعرفون مقامها وعنوانها:

فقيمة السلعة على عكس الأرملة الطروب "لا نعرف أين نجدها"

وفي تناوله العلاقة بين العمال والرأسماليين، نجد نصوصا شعرية كثيرة في الكتاب، خصوصا ما يتعلق بتحديد يوم العمل و الصراع حوله: متى يبدأ اليوم ومتى ينتهي. فالرأسماليون يريدون تمديد وقت العمل من اجل الربح و السبب خصوصا بعد ادخال الالات، أذ كل عام تظهر الالات جديدة فتفقد القديمة قيمتها، والرأسماليون يحرصون على تفادي الخسارة باستخلاص أكبر ربح ممكن بأي ثمن، على حساب التفريط بحياة المنتجين.

بينما رحب الاغريق واليونان بمجيء الالة لانها تخفف من عناء البشر، وتجعل الانسان في مصاف الاله . اما الاستخدام الراسمالي للألات فيجعلها، حسب تعبيره، مثل مصاص الدماء الذي لا يدع احدا من المنتجين مادامت فيه عضلة او عصب او قطرة دم صالحة للامتصاص.

ثم يضيف يا له من تبدل عظيم متى يدرأ هؤلاء " افعى عذاباتهم" (والتعبير الاخير من الشاعر هاينه)

وحول تقسيم العمل الذي يعد من جهة اساسا لتطور المجتمع ولكنه من جهة اخرى يحول الانسان الى كسرة من حطام انسان، و يزجه في دوامة لا يستطيع الخروج منها، دوامة تدمر آدميته، وتجعله فائضا عن الحاجة بمجرد حصول اي تطويرالي .

هنا يستشهد ماركس ايضا بنص لشكسبير من مسرحية تاجر البندقية ردا على التاجر شايلوك- رأس المال.

(ان سلبتني وسائل عيشي سلبتني حياتي).

كما يستشهد برسالة رقيقة لعامل فرنسي مغمور حول تقسيم العمل ويعلق عليها بنص شعري لهوميروس.

تقول رسالة العامل الفرنسي:

(لم يخطر ببالي ان اكون قادرا على ممارسة جميع الحرف كما فعلت في كاليفورنيا. كنت على قناعة بأني لا اصلح لشيء عدا طباعة الكتب، لكني وجدت نفسي وسط عالم من المغامرين ، رحت الاحظ انهم يغيرون حرفتهم باسرع من تغير قميصك، رحت اتصرف مثلهم ـ اظهرت التجربة اني اصلح لأي عمل ، فعملت طباعا وسباكا وسقافا، و..و.ولما ادركت اني اصلح لأي عمل اخذت اشعر بأني اقل شبها بالحيوان الرخوي وأكثر شبها بالأنسان).

ويستخدم ماركس ايضا الكثير من النصوص الساخرة من غوته ومن الكتاب المقدس وغيرها. من ذلك نص للشاعر درايدن بعنوان (الثعلب المكار) يسخر فيه من احد الرأسماليين الصحبيين من طائفة الكويكرز:

ثعلب يلبس رداء التقوى

لا يجرؤ على ارتكاب الخطيئة قبل أن يتلو صلاته

ومن الكتاب المقدس يستشهد ماركس بما يقوله موسى المصري كما يسميه (لا تكمم الثور في دراسه) في اشارة مفارقة الى ان لوردات الارض "المحسنون المسيحيون الالمان"، اذ كانوا يضعون طوقا من الخشب على رقاب الاقنان حتى لا يستطيع القن ان يمد يديه ليأكل قليلا من الحنطة عند درسها اي فصلها من القشور.

ومن سفر الرؤيا- الانجيل- نجد هجاء للنقود يطلق عليها النص الانجيلي اسم : بهيمة. يقول سفر الرؤيا:

(ان لهم غاية واحدة وقد أعطوا للبهيمة – اقرأ النقود الذهبية - ما عندهم من قوة وسطوة ولن يستطيع أحد البيع والشراء اذا لم تكن له صفة البهيمة أو اسمها أو رمز اسمها).

وحول شهوة الامتلاك يستخدم ماركس نصا لغوته

حيث يقول ماركس ان رأس المال هو قيمة حبلى بالقيمة، وحش مفعم بالحيوية، وحش واقع في غرام انتزاع القيمة وهو "جسد موله بهذا الغرام".(العبارة الاخيرة لغوته)

ويستخدم ايضا مشاهد من الرواية، من اونوريه دو بلزاك اوتشارلز ديكنز، ليصف اشكال الوعي اليومي عند المنتجين.

ففي رواية (الفلاحون) يصور بلزاك فلاحا يؤدي عدة اعمال وخدمات للمرابي طلبا لرضى المرابي متوهما بأنه لا يهب المرابي شيئا لان عمله لا يكلفه أي شيء. أما المرابي فهو، حسب ماركس، يضرب

عصفورين بحجر لانه يوقع الفلاح في شراك الربا ويحصل منه على خدمات من دون ان يدفع له اجر. هنا نرى كيف ان الفلاح البسيط لا يدرك ان لعمله قيمة نقدية، انه لا يدرك العلاقة بين العمل و القيمة و النقود.

ويسخر ماركس بهذه المناسبة من الاقتصاديين الذين يرتكبون الاخطاء نفسها في التحليلات أسوة بفلاح بلزاك.

وفي الكتاب المقدس (التوراة) هناك نبي اسمه بلعام وله دابة تتكلم، وكان بلعام يرغب ان يقول اشياء فيخجل، ولكن الدابة تتكلم نيابة عنه، ويقول ماركس ان ذكاءهما متساو ولكن الاقتصاديين يمتطون حميرا اذكى منهم.

وهناك نص من ديكنز يتحدث فيه عن الاله والمفترض انها تقلص وقت العمل ولكن استخدمها الرأسمالي والخوف من اندثار قيمتها يدفع الراسماليين ان الى تمديد يوم العمل. فالاله تمثل انتصار الانسان على الطبيعة وفي استخدامها الرأسمالي تمثل انتصار الالة على الانسان، فهي تفتك به.

وهذا ما يشبه مرافعة السفاح (بيل سايكس) عند ديكنز الذي يقول اثناء محاكمته ما يقوله الراسمالين عن ألاتهم:

" سادتي المحلفين قطعت عنق هذا التاجر الجوال ، الذنب ليس ذنبي بل ذنب السكين، فهل نلغي استخدام السكين بسبب هذه المنغصات؟ السكين ضرورية للجراحة والزراعة اذا ألغيتم السكين عدنا القهقرى الى البربرية."

واكد المحاضر ان هنالك الكثيرة الادبية التي استخدمها ماركس ومنها ما يتعلق بعمالة الاطفال، وكيف كان فقهاء القانون يقلبون الحقائق مثل السفسطائيين.

جمهور الامسية

ثم اجاب حول الاسئلة التي طرحت والتي تتعلق بترجمات رأسمال، وتحليل ماركس للأزمة الرأسمالية واستشرافه في انتهاء النظام الرأسمالي ، واشار الى ضرورة التفريق بين عمل ماركس النظري العملي والسياسي.واكد الى وجود كتاب صادر بالانكليزية حول النصوص الادبية في رأسمال

يعد مدخلا مهما لدراسة الكتاب.